الفصحى واللهجات العامية

وأثرهما في قومية الثقافة ومحليتها

بقلم الدكتورة نفوسة زكريا سعيد

اتخذ العرب منذ العصر الجاهلي لغة موحدة يعبرون بها عن افكارهم وعواطفهم واحاسيسهم ، وهي اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، فأصبحت بذلك لغة القومية والدين . عاشت على السنة العرب وافلامهم ، فألفوا بها روائعهم في كل فن ، واتسعت لكل العلوم التي نقلوها عن الامم ذات الحضارات العريقة ، وغزوا بها لغات الامم التي دانت لهم واستصفت بعد ذلك حضارتهم وثقافتهم العربية . ولكن مع مرور الزمن واختلاط العرب بالاعاجم في مختلف الاقطار التي فتحوها ، نشأت في كل قطر لغة للتفاهم هي ما نعبر عنه باللهجة العامية ، « استعانت بأبسط وسائل التعبير ، فبسطت المحصول الصوتي وصوغ القوالب اللغوية ، ونظام تركيب الجملة ومحيط المفردات ، وتنازلت عن التصرف الاعرابي ، واستغنت بذلك عن مراعاة احوال الكلمة وتصريفها ، كما ضحت بالفرق بين الاجناس النحوية ، واكتفت ببعض القواعد الثابتة في مواضع الكلم، للتعبير عن علاقات التركيب (١) .

ولكن هذه اللهجات العامية التي كانت تدور على الالسنة ، لم تستطع ان تكون لغة للكتابة او التعليم ، وظلت محصورة في ميدانها كأداة للحديث لاحساس العرب ان اللغة الفصحى لغة الكتابة والعلم هي الرابطة الطبيعية بينهم في شتى افكارهم وشعورهم . وقد ظلت اللغة الفصحى محتفظة بهذه السيادة حتى في فترات الضعف والظلام التي انتابت العالم العربي .

والحقيقة ان اللهجات العامية ليست مشكلة العربية الفصحى كما يزعم دعاة العامية في أيامنا هذه ، وانما هي ظاهرة طبيعية في اللغات ، توجد بنسب متفاوتة حسب ظروف كل لغة : نشأتها ، تطورها ، مدى انتشارها ، عدد المتكلمين بها . وحسبنا للتعرف على هذه الظاهرة في لغة اوروبية حديثة ، ان نرجع الى كتاب « هنري بوش » الذي اصدره سنة ١٩٥١ في العامية الفرنسية ، حيث بين كثيرا من مظاهر الاختلاف بينها وبين اللغة الفرنسية الفصحى ، من ناحية الالفاظ والقواعد وتركيب العبارات وطريقة النطق .

فالعامية اذن ليست بدعا في لغتنا العربية الفصحى ، وان ما نراه اليوم من تعدد لهجاتها وما نراه من التباين الكبير نسبيا وبينها وبين الفصحى او بين كل لهجة واخرى ، مرجعه الى قدمها ، فهي اقدم اللغات الحية جميعا ، والى سعة المجال الذي انتشرت فيه ، وهو مجال يمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي، وله اطراف تمتد في ناحية شرق افريقيا ، هذا الى جانب الضعف الذي ابتليت به في بعض فترات حياتها فكان له اثره في توسيع مسافة الاختلاف بينها وبين لهجاتها العامية ، لان اللهجات العامية ترقى عادة بألفاظها واسلوبها بانتشار التعليم وازدهار الفصحى، وهي بلا شك منطورة الان عما كانت عليه منذ خمسين عاما مثلا ، بحيث يمكن ان نقول ان العامية سوف تقترب من الفصحى كلما اتسع نطاق التعليم ، وكلما كانت برامج الوسائل الاعلامية والثقافية مكتوبة بالفصحى . كما أن وجود اللهجات العامية بجانب الفصحى لا يشكل أية خطورة على حياة الفصحى ، طالما بقيت الفصحى لغة للثقافة والتعليم ، وبقيت العامية اداة للتفاهم في الحياة اليومية والامور المعيشية .

ولكن لغتنا العربية الفصحى تعرضت منذ اواخر القرن الماضي لظروف اتاحت للهجات العامية ان تقتحم ميدانها ، وتسعى الى اقصائها واحتلال مكانها . ومن هنا جاءت الخطورة التي عرضت التعبير الادبي لاعنف ازمة عرفها في خلال تاريخه الطويل، وعرضت الامة العربية لاعنف انقلاب ثقافي ، بعد ان كونت لنفسها ثقافة مشتركة ، وطيدة البنيان واضحة المعالم والسمات بين الثقافات العالمية .

وهذه الظروف التي ابتليت بها الفصحى ، وعرضتها للمنافسة بينها وبين لهجاتها المحلية ، نرجع الى عدة عوامل اختلفت فيها النوايا والاهداف . منها ما هو سياسي ومنها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو فني .

اما العامل السياسي فيتركز في الدور الذي قام به الاستعمار الاجنبي على اختلاف انواعه في محاربة العربية الفصحى ، لغتنا القومية ، عندما سيطر على الوطن العربي ، وذلك لان اللغة القومية ـ كما لم يخف على المستعمرين ـ هي التي تربط المرء بجنسه وماضيه ، وتفرق بينه وبين غيره من ابناء الشعوب الاخرى في مزاجه وتفكيره ومثله العليا وطريقته في الحياة ، وهي بالنسبة الينا لغة دين سماوي لا سبيل الى فهمه الا عن طريقها ، فالقضاء على العربية الفصحى ، هو القضاء التام على الشخصية العربية بكل مقوماتها الدينية والتاريخية والثقافية . وفي شرح هذه الحقيقة يقول عباس محمود العقاد : « ان الحملة على اللغة في الاقطار الاخرى ، انما هي حملة على لسانها او على ادبها وتمرات تفكيرها على ابعد احتمال، ولكن الحملة على لغتنا نحن حملة على كل شيء يعنينا ، وعلى كل

(١) يوهان فك : العربية . ص ٩

تقليد من تقاليدنا الاجتماعية والدينية ، وعلى اللسان والفكر والضمير في ضربة واحدة ، لان زوال اللغة في اكثر الامم يبقيها بجميع مقوماتها غير الفاظها ولكن زوال اللغة العربية لا يبقى للعربي او المسلم قواما يميزه من سائر الاقوام ، ولا يعصمه ان يذوب في غمار الامم فلا تبقى له باقية في بيان ولا عرف ولا معرفة ولا ايمان » (١) .

ولهذا كان القضاء على العربية الفصحى من اهم اهداف المستعمرين في مختلف البلاد العربية التي وقعت تحت سيطرتهم .

فتركيا عندما سيطرت على معظم اجزاء الوطن العربي نحو ثلاثة قرون ، من القرن السادس عشر الى اوائل القرن التاسع عشر ، جعلت ـ على الرغم من انتمائها للاسلام ـ القضاء على العربية الفصحى اهم هدف من اهدافها ، لتضمن ولاء العرب لنفوذها وخضوعهم تحت سيطرتها . فكانت اللغة التركية ـ لغة الدولة الرسمية ـ هي لغة الديوان والتعليم والمعاملات ، من لم يجدها لا حظ له من جاه او مال ، اما اللغة العربية فلم يكن لها نشاط ثقافي يذكر ، وكادت مراكز تعليمها تنحصر في الجامع الازهر بالقاهرة ، وفي بعض مدارس متفرقة في البلاد العربية ، ترك امر انشائها لذوي المروءة من ابناء العربية.

وقد ترتب على تقهقر اللغة العربية في تلك الفترة الطويلة انحطاط شديد في اسلوب الكتابة بحيث اصبح لا يكاد يفهم الا بعد مشقة وجهد ، تصوره الرسالة التالية التي نعرضها على سبيل المثال : « وردت افادتكم بتاريخ ... نمر ( ) وما بها صار معلوم ، والحال انه فولو كان لازم النظر في التأثير الذي في هذه الخصوص، ولم كان لازم التشبث بهذا الكيفية ، وحيث الامر كذلك فالمصلحة لم اخذت حقوقها ، وان يكون حاصل في الترتيب خلل ، فلازم يفادنا عما ترآى وبوقته اجرون مفعول ذلك بالدقة الكافية ، والحذر من التاخير » (٢) .

ولم تكد اللغة العربية الفصحى تخرج من براثن السيطرة التركية وتسترد بعض مكانتها في عصر النهضة الحديثة ، حتى دخلت في براثن الاستعمار الغربي الذي اعتبر اللغة العربية فيكل قطر عربي ابتلي به ، لغة معادية ينبغي محاربتها . وحسبنا ان نستشهد هنا بما فعله الاستعمار الفرنسي في شمال افريقيا ، وما فعله الاستعمار الانجليزي في مصر ، في محاربة العربية الفصحى .

فعندما احتلت فرنسا البلاد العربية في شمال افريقيا ، الجزائر عام (١٨٣٠) ، وتونس عام (١٨٨١)، والمغرب عام « ١٩١٢ » جعلت سياستها الاساسية القضاء على العربية الفصحى . فجعلت اللغة الفرنسية وحدها اللغة الرسمية ، لغة الحكومة والمحاكم والمدارس واعتبرت اللغة العربية الفصحى لغة اجنبية كغيرها من اللغات الاجنبية ، وجعلت المدارس الحكومية كلها مدارس فرنسية بلغتها ومناهجها ومعظم مدرسيها وتلاميذها ووضعت العراقيل امام العرب الراغبين في دخول تلك المدارس الحكومية وخاصة في مرحلتي التعليم الثانوي والعالي ، حتى ينفرد الفرنسيون بالتفوق العلمي ، ويكون منهم معظم حاملي شهادات الجامعات الفرنسية . وحاربت المدارس الاهلية والكتاتيب التي تدرس القرآن لأنها كانت معاقل اللغة العربية ، فحرمتها من الاعانات المالية الحكومية ،وجعلت تأسيسها خاضعا لرخصة تمنحها ، وشرطت على معلميها معرفة اللغة الفرنسية ، مما ادى الى اغلاق ابواب كثير من المدارس العربية والكتاتيب كما حدث في الجزائر . ومنعت ابناء البلاد من كل اتصال ثقافي بالاقطار الشرقية العربية ، فحالت بينهم وبين كتبها ومجلاتها وجرائدها واساتذتها .

ولم تكتف فرنسا في محاربة اللغة العربية بهذه الوسائل فحسب، وانما عمدت الى سياسة التفرقة بين البربر والعرب في كل من الجزائر والمغرب ، بزعم ان البربر لم يتعربوا ، فانشات مدارس فرنسية بربرية تقوم اساسا على ابعاد ابناء البربر عن اللغة العربية ، مما اضطر اللغة العربية في المغرب العربي الى مصارعة لغتين بدلا من لغة واحدة : الفرنسية والبربرية .

وعندما احتلت انجلترا مصر (١٨٨٢) افتن الانجليز في الاساليب التي يحاربون بها العربية الفصحى ، وقد لجأوا في محاربتها الى طريقتين :

كانت الطريقة الاولى اقصاء العربية الفصحى عن ميدان التعليم في المدارس المصرية واحلال اللغة الانجليزية محلها ، فارغموا علي باشا مبارك وزير المعارف وقتذاك على اصدار قرار سنة ١٨٨٩ ،ينص على ان تكون لغة التعليم في المدارس المصرية هي اللغة الانجليزية ، وشجعوا ابناءهم على العمل بالمدارس المصرية معلمين ونظارا ،حتى يصبغوها بالصبغة الانجليزية ، وكان هدفهم من ذلك كما كان هدف الفرنسيين في شمال افريقية ، تنشئة اجيال تلهج بلسانهم ،وتعرف ثقافتهم وادبهم وحضارتهم وتعجب بمثلهم العليا في التاريخ والحياة وتتشرب روحهم وتتشكل بمزاجهم ، ثم تفنى فيهم في نهاية الامر . فمن المعلوم ـ كما يقول مصطفى الشهابي ـ « ان لغة شعب من الشعوب بين ابناء بلد اجنبي يؤدي الى انتشار ثقافة ذلك الشعب، والى انتشار نفوذه الادبي في ذلك البلد ويشتد هذا النفوذ كلما كانت لغة البلد الاصلية ضعيفة بالعلوم ، فلا يبعد عندئذ ان تنقلب عقلية الشباب الذين يتثقفون بلغة الشعب المذكور فيصبحوا من أشد انصاره وربما اصبحوا اعداء للغتهم الاصلية (٣) .

والواقع ان هذه الطريقة التي اتبعها الانجليز في اقصاء العربية الفصحى عن ميدان التعليم ولمدة تقرب من العشرين عاما (١٨٨٩ ـ ١٩٠٨) ان كانت قد نجحت في اضعاف اللغة العربية واستهانة بعض المصريين بها ، وعدم تورع بعضهم من اعلان العداء لها ، فانها لم تنجح في القضاء على العربية الفصحى كما كان يأمل المستعمرون.ولذلك لجأوا الى طريقة اخرى في محاربتها بجانب الطريقة الاولى ،وهي الدعوة الى اتخاذ العامية اداة للكتابة والتأليف والتعليم واحلالها محل العربية الفصحى . وقام رجالهم ممن تولوا مناصب عالية في مصر من امثال المهندس وليم ولكوكس والقاضي سلدون ولمور بنشاط واسع للترويج للدعوة الى العامية .

نشر ولكوكس عام ١٨٩٣ محاضرة بعنوان « لِمَ لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الان » زعم فيها ان اهم عائق يمنع المصريين من الاختراع هو انهم يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى ، وانهم لو الفوا وكتبوا بالعامية لاعان ذلك على ايجاد ملكة الابتكار وتنميتها.

ونشر عام ١٩٢٦ رساله بالانجليزية بعنوان « سوريا ومصر وشمال افريقيا ومالطة تتكلم البوية لا العربية » حاول فيها البرهنة على ان مصر ليست عربية اللغة ، ليكون ذلك متمما للمحاولة التي بذلها الفرعونيون من قبل عن طريق بث الفرعونية لاثبات ان مصر ليست عربية الجنس . ثم دعا المصريين الى الاهتمام بلهجتهم العامية التي هي بونية الاصل ، واقترح تعميم التعليم بها ، وحدد مدة هذا التعليم بعشر سنوات ، رأى انها كفيلة بتخليص المصريين من السخرة الثقيلة التي يعانونها من جراء الكتابة بالعربية الفصحى .

وحاول ان يدعم العامية بطريقة عملية ، فترجم بها نماذج علمية وادبية رفيعة . فترجم قطعا من روايات شكسبير الى العامية ، وترجم الانجيل الى العامية ، والف كتابا بالعامية بعنوان « الاكل والايمان » ضمنه فوائد طبية وارشادات صحية مصطبغة بتعاليم الدين المسيحي .

ونشر لمور عام ١٩٠١ كتابا بالانجليزية بعنوان « العربية المحكية في مصر » اقترح فيه ضبط العامية حتى تصير صالحة للكتابة ،

---

(١) عباس محمود العقاد : «اشتات مجتمعات في اللغة والادب» ص١٢٧

(٢) مجلة الاستاذ (١١ اكتوبر ١٨٩٢) العدد ٨ . ص ١٦٩ .

(٣) محاضرات في الاستعمار ، ص ١٨٢ .

وكتابتها بحروف لاتينية لان الحروف العربية لا تصلح لكتابة العاميه (١) واقترح جمع الادب العامي ونشره ، لان اللغة التي ليس لها ادب ـ كما يقول داعية العامية الاول الدكتور الالماني ولهلم سبيتا ـ « مثل الجسم المفكك اذا نظرنا اليه من بعيد ظهر كشيء صلب متماسك ، ولكن اذا حاولنا لمسه ظهر على طبيعته المتداعية التي سرعان ما تنهار من كل جانب » (٢) واقترح ايضا ان يكون التعليم بالعاميه اجباريا ، ورأى أن وقتا قصيرا في هذا التعليم جدده بعامين ، سيكون كافيا لنشر القراءة والكتابه في البلاد ، واختتم اقتراحاته بمناشدة المصريين بالاستجابة الى دعوته ، محاولا ايهامهم أن معارضتها ستعرضهم لخطر اكبر من الخطر الذي يتحاشونه ، وهو انقراض العاميه والفصحى معا ، واحتلال لغه اجنبية محلها ، نتيجة لزياده الاتصال بالامم الاوروبيه ، وذلك لكي يحملهم على قبول العاميه لغة للكتابة والتعليم باعتبار انها اهون الشرين واخف الضررين .

هذه نماذج من اساليب الاستعمار البريطاني في الدعوه الى العامية التي لم يكن له هدف من ورائها سوى تفتيت وحدة الامة العربية ، حتى يتمكن هو واعوانه من المستعمرين الاوربيين من الهام كل بلد عربي على حدة ، وهذه الدعوة وان كانت قد باءت بالفشل ، شانها شأن الاساليب الاخرى التي استخدمها الاستعمار الاوروبي في محاربة العربية الفصحى ، فانها قد نجحت في اجتذاب بعض ابناء العربية ، لا في مصر وحدها بل في مختلف البلاد العربية ، ففاموا يروجون لها في خلال حركات التجديد والاصلاح في اللغة العربية وآدابها ، ويثيرون البلبلة في أذهان اخوانهم والشك في قدرة الفصحى على مسايرة نهضتنا الثقافية المعاصرة .

اما العامل الاجتماعي الذي أتاح للعامية ان تزاحم الفصحى في ميدانها ، فتكون أداة للكتابة والتاليف ، فهو مترتب على العامل السياسي الذي اشرنا اليه من قبل ، وكان من نتيجة فسادهما انتشار الاميه في الوطن العربي ، والاميه كانت وما زالت اهم عائق في طريق انتشار الفصحى ، يجعلها بعيدة عن متناول العامة وهم يمثلون الاغلبية في الاقطار العربية .

لهذا رأى فريق من الكتاب المصلحين منذ اواخر القرن الماضي استخدام العامية في كتابة المقالة الصحفية ، لتثقيف العامة واطلاعهم على احوال البلاد السياسية والاجتماعية والخلقية ، وكان على رأس هؤلاء المصلحين قائد الحركة الفكرية والاصلاحية في العالم العربي جمال الدين الافغاني ، وهو ـ كما يقول تلميذه عبد الله النديم في مذكراته السياسية ـ أول من شجع كاتب المقالة العامية الاول « يعقوب صنوع صاحب مجلة « ابو نظارة » التي صدرت في مصر عام ١٨٧٨ .

ولقد سار عبد الله النديم في الطريق نفسه الذي شجعه استاذه ، فاستخدم العامية في صحيفته « التنكيب والتبكيت » التي اصدرها عام ١٨٨١ ، و « الاستاذ » التي اصدرها عام ١٨٩٢ . قسم كل صحيفة الى قسمين : قسم للخاصة يكتبه بالفصحى ، وقسم للعامة يكتبه بالعامية ، وتناول في كل قسم الموضوعات التي تعني اصحابه ، وكلها تعبير عما كانت تعانيه البلاد من أدواء سياسية واجتماعية وخلقية وكانت طريقته في معالجة تلك الموضوعات واحدة من ناحية الاخلاص والحماسة في تبليغ رسالته الاصلاحية لا فرق عنده بين العامة والخاصة الا في اداة التعبير ووسائله .

وقد تبع عبد الله النديم كثير من الكتاب المصلحين في استخدام العامية ، كأداة من ادوات التثقيف . منهم من نهج نهجه في صحيفتيه مثل محمد النجار صاحب مجلة « الارغول » التي صدرت عام ١٨٩٤ ، ومنهم من كان يترجم الى العامية المقالات الصحفية التي كانت تنشرها المجلات العربية ، حتى يمكن العامة من الاطلاع عليها ، مثل جورجي زنانيري صاحب مجلة « الغزالة » التي صدرت عام ١٨٩٦ .

وكان الهدف الاصلاحي من استخدام العامية عند هؤلاء الكتاب واضحا كل الوضوح ، وكان النديم اشدهم حرصا على توضيح مذهبه في استخدام العامية ، وخاصة عندما لجأ الانجليز الى محاربة الفصحى في مصر للدعوة الى العامية ، وهي دعوة لم يجهل النديم خطورتها ، ولذلك كان اول من تصدى للرد على ولكوكس داعية العامية الاول من رجال الاستعمار البريطاني . فكتب يقول في شرح مذهبه في استخدام العامية .

« فعندما رأينا انتشار الامية بسبب تقصير ملوك الشرق في جانب العلوم ، واشتغالهم بالحروب الداخلية والخارجية عما يقدم الامة من المعارف ، عزمنا على فتح جريدة بهذيبية تشتمل على فصل قصير باللغة الدارجة ، تحول به العامي الجاهل من كراهة سماع الكتب الى محبتها ، فينجر به الامر الى سماع الكلام الصحيح ، وهناك لا يلزم كتابه غير الصحيح . وهذا الذي رأينا انه القوة الجاذبية لتحويل الافكار الى اللغة اذ ذاك فانشانا جريدة التنكيب والتبكيت ... » (٣).

لم يكتف النديم بتوضيح مذهبه في استخدام العاميه بل سل قلمه للدفاع عن العربية الفصحى ، لا بالمقالات الفصيحة فحسب ، وانما بالمقالات العامية ايضا ، ليثير حماسة العامة للغة العربية الفصحى ، ثم لم يلبث ان اغلق باب العامية ، ولم تنقصه الوسيلة بعد ذلك في الاتصال بالعامة الذين تاروا على اغلاق باب العامية لانه اتخذ لغة عربية ميسرة لا تعلو على العامة ولا تسفل الى العاميه، ويصفها في حوار له فيقول : « لكم عليّ اني أخاطبكم بكلام يفهمه الطفل الصغير والرجل والمرأة من غير تعب ، ولا يحتاج لتفسير ولا لشيخ يقول لكم معناه » .

هذه اللغة العربية الميسرة هي اللغة التي دعا النديم الى استخدامها في مخاطبة الجماهير منذ ستين عاما وقت ان كانت الامية على اشدها ، ليوقف خطرا هدد كيان الفصحى . ولكننا ما زلنا نستخدم العامية كأداه من أدوات التثقيف مستندين الى السبب نفسه الذي استند اليه المصلحون السابقون في استخدام العامية ، وهي الامية . حقيقة ان الامية ما زالت متفشية بنسبة عالية في عالمنا العربي ، ولكن ينبغي ألا نجعل منها سببا لسريان العامية ، وخاصة لان الصحافة لم تعد منفذها الوحيد ، فقد تعددت منافذها بتعدد وسائل الاتصال بالجماهير ، من اذاعة وتليفزيون ، سينما ، ومسرح والاتصال بالجماهير عن طريق هذه الوسائل من الممكن ان يكون بلغة عربية سهلة ميسورة حتى على الاميين الذين لا يقرأون او يكتبون .

اما استخدام العامية في هذه الوسائل في صورة واسعة مثلما نشهد في هذه الايام ، فليس له ما يبرره استنادا على انتشار الامية ، للخطورة الناجمة من جراء التوسع في مخاطبة الناس بالعامية والنزول اليهم عن طريقها ، بدلا من محاولة اجتذابهم الى الفصحى بوسيلة سهلة جذابة .

وليس من شك في ان القضاء على الامية وانتشار التعليم يساعد الى حد بعيد في التحلل من ميل هدام لكيان اللغة الفصحى ، ويجرد دعاة العامية من سبب رئيسي يحاولون به نشر العامية في كتاباتهم واقوالهم من خلال وسائل الاتصال الجماهيرية التي اشرنا اليها . وقد سبق لدعاة العامية من المستشرقين والمستعمرين ان حملوا العربية الفصحى مسؤولية انتشار الامية وافتقار العالم العربي الى ثقافة شعبية، ولست في حاجة الى التدليل على ان هذا الاتهام لا نصيب له من الصحة لان انتشار الامية اقترن بالانحلال السياسي في عصور القهر والاستبداد ، ولم يقترن قط بسيادة الفصحى بل اننا نرى على

---

(١) تناول هذا الاقتراح فيما بعد العربية الفصحى نفسها ، فاقترح كتابتها بحروف لاتينية .

(٢) انظر كتاب « تاريخ الدعوة الى العامية واثرها في مصر » ص١٨ وما بعدها ، لكتابة هذا البحث .

(٣) صحيفة الاستاذ : العدد ٢٠ ـ ٣ يناير سنة ١٨٩٢ .

العكس من هذا الاتهام ان الفصحى سبيل للتقدم العلمي والتعليمي ايضا ، وان في انتشارها قضاء على الامية والتخلف بكل مظاهرهما .

والى جانب هذين العاملين السياسي والاجتماعي ، يوجد عامل اخر في عصرنا الحاضر يستند اليه دعاة العامية في الترويج لها ، واعني به المذهب الواقعي الذي ساد حياتنا الادبية منذ الحرب العالمية الثانية ، وقد نادى اصحاب هذا المذهب بضرورة مضاهاة الواقع لغة وموضوعا وخاصة في فن القصة والمسرحية ، وهما من الفنون التي يعول عليها كثيرا في تثقيف الجماهير ، لاستجابتها لهما ولما يحققان لهما من المتعة والمنفعة ، فكتبوا حوار قصصهم ومسرحياتهم المحلية باللهجات المحلية لمضاهاة الواقع الذي يسعون الى تحقيقه وهو في رأيهم لا يتحقق الا اذا انطقنا الشخصيات باللغة التي يتكلمون بها في حياتهم اليومية ، فظهر في كل بلد عربي نماذج من هذه الاعمال القصصية والمسرحية لا يكاد يفهمها الا ابناؤه .

والحقيقة ان مجاراة الواقع مجاراة حرفية لا يمكن ان تتحقق في الاعمال الفنية ، لان الفن صناعة وليس تسجيلا حرفيا للواقع ، ولان واقعية اللغة بالذات ليست كما يريدها اصحاب المذهب الواقعي انطاق كل شخصية بلهجتها الخاصة ، وانما هي الملاءمة بين اللغة وبين الشخصية من الناحية العقلية والنفسية والعاطفية ، فلا يتحدث امي مثلا بافكار الفلاسفة . هذا ولان العربية الفصحى تستطيع ان تستوعب الالوان المحلية ، فهي كما يقول ـ علي احمد باكثير ـ « مثل الماء الصافي الذي يمكن تلويثه بأي لون تريد ، فيظهر هذا اللون على حقيقته . اما العامية فمثلها كمثل الماء الملون لا يظهر أي لون جديد على حقيقته »(1) .

ولقد كتب علي احمد باكثير ـ ايمانا منه بقدرة الفصحى على معالجة المسرحية المحلية دون ان تفقدها واقعيتها ـ مسرحيتيه «مسمار جحا» و « الدنيا فوضى » بلغة عربية ميسرة ، حاول فيها ان يقتبس من اساليب العامية ومنطقها وسائر خصائصها ، كما استخدم الفاظها العربية الصحيحة ، دون ان يخرج على اصول الفصحى او يعبث بقانون من قوانينها النحوية او الصرفية .

ولقد لقيت هذه المحاولة التي قصد بها علي احمد باكثير ترويض ذوق الجماهير على استساغة الحوار القصير ، قبولا من الجماهير تجلى في النجاح الذي احرزته مسرحيته « مسمار جحا » عندما مثلتها فرقة المسرح المصري الحديث سنة ١٩٥١ .

وسعى توفيق الحكيم في مسرحيته المحلية « الصفقة » الى ايجاد لغة مسرحية موحدة في العالم العربي فكتبها بلغة سليمة استقاها من لغة الحياة اليومية « تبدو ـ كما يصفها الحكيم نفسه ـ لاول وهلة لقارئها انها مكتوبة بالعامية ، ولكنه اذا اعاد قراءتها طبقا لقواعد الفصحى فانه يجدها منطبقة على قدر الامكان . » وأسماها اللغة الثالثة ، وهي في الواقع لا تخرج عن كونها لغة عربية ميسرة .

ولقد اختلف النقاد في حكمهم على هذه التجربة ، منهم من رفضها لان لغتها ـ في رأيهم ـ لغة مصطنعة تشبه لغة الاسبرانتو التي اخترعها بعض العلماء في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، لتصبح لغة دولية يستعملها العالم كوسيلة للتقريب بين الشعوب . ومنهم من رحب بها لمواجهة الضرورة القومية ، والتخلص من كتابة ادبنا المسرحي والقصصي والمحلي باللهجات العامية المتعددة في الاقطار العربية ، والتي تعتبر ادوات تفريق بين ابناء العربية .

ومهما كانت آراء النقاد في هذه التجارب المسرحية الرائدة التي اشرنا اليها ، ومهما كان موقف الجمهور منها ، فاننا لا ننكر ان المسرحيات المحلية المكتوبة بالعامية ما زالت حتى يومنا هذا المفضلة لدى جماهيرنا العربية ، وليس أدل على ذلك من النجاح والرواج اللذين تلقاهما تلك المسرحيات . اما سبب ذلك فليس مرجعه العربية الفصحى او عدم قدرتها على اجتذاب الجماهير كما يزعم انصار العامية ، وانما مرجعه الى تعود الجماهير على مشاهدة المسرحيات المحلية ممثلة بالعامية ، ولو جرت العادة بغير ذلك لما احست الجماهير باي نبو او غرابة في مشاهدة المسرحيات المحلية ممثلة بالعربية الفصحى . واذا كانت العادة قد تحكمت في أذواق الجماهير فصرفتها عن الفصحى ، فمن واجبنا اليوم ونحن في مطلع نهضة قومية عربية شاملة ، ان نغير هذه العادة فنكتب مسرحياتنا المحلية بلغة فصيحة ميسرة ، وليس من العسير تغيير هذه العادة بعد ان رسخ الفن المسرحي في بلادنا ، وهو كما نعرف من الفنون المستحدثة التي لم يكن لنا فيها اصول راسخة ، وليس من العسير ايضا تغيير هذه العادة بالنسبة للجماهير بعد ان ازداد وعيها القومي .

★★★

بعد ان استعرضنا العوامل الثلاثة التي أتاحت للهجات العامية فرصة مزاحمة الفصحى في عالمنا العربي ، ينبغي ان نقف لنبين حقيقة اللهجات العامية ، وأوجه خطورة انتشارها بالنسبة لواقعنا العربي ، ماضيه وحاضره ومستقبله .

ان اللهجة العامية في أي قطر عربي ليست الا عربية محرفة ، دخلتها الفاظ وتراكيب أجنبية بحسب التأثيرات التي تعرض لها كل قطر عربي على حدة .

وان التحريف في العامية ليس مطردا وليس واحدا ، فهو يختلف من قطر الى قطر ، ويختلف في القطر الواحد من بلد الى بلد ، ويختلف في البلد الواحد من حي الى حي ، بل انه يختلف في الاسرة الواحدة حسب الاجيال التي ينتمي اليها افراد الاسرة ، طبقا لعامل التغيير الذي يعتري اللهجات العامية بصورة ظاهرة سريعة .

وتتفاوت مظاهر الاختلاف في البيئات التي ذكرتها ، فهي مثلا تقل في الاسرة الواحدة ، وتبلغ أشدها بين قطر وقطر الى درجة يتعذر معها ان يتفاهم ابناء قطر مع ابناء الاقطار الاخرى سواء عن طريق التخاطب أم عن طريق الكتابة .

وهذا يتضح فيما نسوقه من امثلة استخدمت فيها اللهجات العامية من بلاد عربية مختلفة . فالمثال الاول للعامية الجزائرية يقول :

« الوداد والسوامة : واحد النهار هما زوج متاع الناس ، خلطوا للسوق باش بشروا عودة ، صابوا راجل ودواد يبيع في عودة ، ساوموها منه ، قالوا اشحال تسوي العودة ، قال لهم اعطارا خم خم خم . قال الواحد لصاحبوا أيا نمشوا ، ما يجي يوصل للسين غير قد شرينا فرسا اخر قبل ان يصل الى حرف السين .

فاذا ترجمنا هذه القطعة العامية الى اللغة العربية الفصحى ، وجدناها تعني حكاية تدور بين تاجر لا يحسن النطق وبين الزبائن الذين يساومونه . فذات يوم ذهب رجلان الى السوق ليشتريا فرسا ، فصادفا هذا التاجر يبيع فرسا ، فسألاه عن ثمن الفرس ، فقال لهما خم خم خم .. فقال احدهما لصاحبه ، هيا نمش ، لاننا سنكون قد اشترينا فرسا آخر قبل ان يصل الى حرف السين .

فهل يمكن لعربي في خارج الجزائر ان يفهم هذا الكلام العامي بغير الاستعانة بمترجم وكأن الحكاية مكتوبة بلغة أجنبية غير العربية ؟

وهذه الصعوبة تنشأ عندما نقرأ في احدى القصص السودانية المعاصرة جزءا من حوار يتم بالعامية السودانية ، يقول :

« جال : شيخ السوج وين ؟ جال ليهو الوليد أحمد يا هو ،

---

(١) «فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية» ص ٧٥ .

(٢) مجلة المشرق (١٩٢٥) السنة ٢٣ عدد ٣ ص ١٢٧ .

منصور جال ليهو : آي يا اسطى . جال : السوج اصلو خلاص براهو مرج من يدي من ايام ، الرزاج كله الله . اني ما داير افشاك ، يلاك يا عثمان نشيف منعم ، ما تجيف كدى في خشم الباب وتكورك (١) .

هذا الكلام ايضا لا يستطيع عربي في خارج السودان ان يفهمه الا بعد الترجمة الى العربية الفصحى وهي :

قال : اين شيخ السوق ، قال له الوليد احمد : هذا هو ، قال منصور له : نعم يا معلم قال : ان السوق قد افلت من يدي منذ ايام، الرزاق هو الله ، انا لا أريد زيارتك ، هيا بنا يا عثمان نرى منعم ، لا تقف هكذا في فتحة الباب وتكثر من الكلام .

وهكذا لو اوردنا امثلة مختلفة من شتى الاقطار العربية مستقاة من لهجاتهم العامية ، فاننا سوف نصادف صعوبة بالغة في فهمها ، مما يعرقل الى حد بعيد التفاهم الذي ينبغي ان يكون قائما بين ابناء الامة العربية الواحدة ، وهذا التفاهم هو الاساس في كيان القومية العربية .

فاذا كانت اللهجات العامية عامل انقطاع بيننا في الوقت الحاضر بحيث لا يفهم قطر لهجة قطر اخر كما بينا ، فانها سوف تكون عامل انقطاع ايضا بيننا وبين تراثنا العربي ، وهو تراث كان له دور كبير في بناء الثقافة الانسانية ، وفي تاريخ العلوم الحديثة ، باعتراف الغربيين انفسهم . فقد استطاع العرب الاوائل بعد عصر الفتوحات ان يتمثلوا حضارات الامم القديمة وان يضيفوا اليها من ابداعهم وعبقريتهم في كل المجالات ، مما جعل ثقافتهم وعلومهم ركيزة للتقدم الانساني في العصور الوسطى .

كانت مؤلفاتهم العلمية في الطب والرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والزراعة .. من المراجع الاساسية عند الغربيين ، وكانت تدرس في جامعاتهم حتى وقت قريب ، فكتابات ابن سينا في الطب كما يقول لوبون ـ لم يكف اساتذة جامعة مونبيليه بفرنسا عن شرحها الا منذ خمسين عاما فقط (٢) .

وكانت مؤلفاتهم الادبية ايضا من شعر ونثر ، لها أثر واضح في الآداب الغربية في القرون الوسطى اعترف به مؤرخو تلك الآداب ، وفي ذلك يقول جب : « لعل خير ما أسدته الآداب الاسلامية لآداب أوروبا، انها اثرت بثقافتها وفكرها العربي في شعر ونثر العصور الوسطى » (٣).

تراث هذا شانه ينبغي الا نقطع صلتنا به لا عن ارتباط عاطفي ولا عن رغبة في التفاخر بماض بعيد ولكن لكي نثق بانفسنا وقدراتنا ونؤمن بان العرب الذين اثروا في تراث الانسانية من قبل ، من الممكن ان يؤدوا دورا جديدا في حاضر العالم الحديث .

ولكن دعاة العامية يحاولون بطبيعة الحال ان يحطوا من شان تراثنا العربي ليجردوا لغته الفصحى من مقوماتها العلمية والادبية .

زعم احدهم ان التراث العربي ليس فيه كتب يعتمد عليها في الصناعة ولا في الفلاحة ولا في التجارة ولا في كل العلوم الا ما يترجم اليه حديثا ، وان ما الف فيه من كتب في مبادىء الرياضيات والتاريخ، اصبح لا قيمة له بعد ظهور كتب الافرنج (٤) .

وزعم داعية آخر من دعاة العامية ، ان الادب الذي حمله لنا تراثنا العربي ، ادب ملوكي لانه كتب للملوك والامراء ، وانه ادب اللذة الجنسية ، وادب المنازعات الحربية ، او المناقشات الدينية ، وادب الاستعارة والتورية والبهارج والمحسنات ، لم يقصد به الا الترف الذهني ، وانه في النهاية ليس للحياة أو للانسانية او للشعب او للمجتمع ، ولذا فان الادب الشعبي وحده ، هو الادب الذي ينبغي ان نبني عليه نهضتنا الادبية (٥) .

ولست في حاجة الى الوقوف طويلا لمناقشة هذه المزاعم التي تستهدف النيل من قيمة التراث العربي ، للوصول الى النيل من لغته العربية الفصحى ـ وهو ما يهدف اليه دعاة العامية ـ بعد ان اعترف الاجانب الذين اشادوا بعلومهم وآدابهم بقيمة التراث العربي ، وبعد ان اثبتت الفصحى قدرتها على تناول شتى العلوم في الماضي وهي في سبيل الاتساع لها في الحاضر كما انها اثبتت قدرتها على التعبير عن اسمى العواطف والمشاعر الانسانية ولا يستطيع احد ان ينكر ما في ادبها من حكم وزهديات وغزل عذري عفيف .

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى اللهجات العامية ، نجد انها بالاضافة الى كونها ادوات تفرق بين ابناء العرب بالنسبة لحاضرهم وماضيهم ، لا تقوى على ان تكون أداة للعلم والادب ، لانها لا تقوم على قواعد واصول مكتوبة ، وليس لها نحو خاص ، فالامر فيها متروك لاذواق الناس واهوائهم ، وان ما بذله بعض المستشرقين من دعاة العامية في سبيل ايجاد قواعد للعامية قد أكد استحالة وضع هذه القواعد ، لا بالنسبة للهجات الاقطار العربية المختلفة فحسب وانما بالنسبة للهجة القطر الواحد ، ولذلك رأينا بعضهم وهو يحاول وضع قواعد للهجة المصرية ، لم يجاوز اللهجة القاهرية وحدها ، وبذلك لم يصل الى شيء مما كان يرجوه . وليست استحالة وضع قواعد للعامية قاصرة على ما بين لهجاتها من اختلافات ، بل لما يطرأ عليها من تغير سريع ، مما يجعل ما يكتب بها اليوم في بلد من البلاد غير مفهوم لاهل هذا البلد بعد سنوات .

وعلى الرغم من هذه الحقيقة العلمية التي تثبت افتقار العامية الى كل المقومات التي تجعلها لغة علم وأدب ، فقد بذل دعاة العامية جهودا كبيرة لاثبات امكان استخدامها في مجالات العلم والادب ، فباءت محاولاتهم جميعها بالفشل والخذلان .

لم تنجح محاولات ولكوكس في نقل قطع من مسرحيات شكسبير الى العامية ، وفي نقله الانجيل الى العامية ، لانها اخرجت لنا نصوصا مشوهة ، في أسلوب عقيم امتزج بلكنة الاجنبية ، عجز عن التعبير عن المعاني الانسانية التي تضمنتها تلك النصوص .

ولم تنجح كذلك محاولات مارون غصن احد دعاة العامية في لبنان ، عندما حاول ان يجعل من اللهجة اللبنانية أداة أدبية تحل محل الفصحى . واذكر له في هذا المجال موضوعا أدبيا كتبه باللهجة اللبنانية بعنوان « أمي » :

« لا تحسبوا ان الزمان بيقدر دايمن يمحي الجمال ، ولا البكا والهموم بيقدرو دايمن يروحولو نضارتو ، هيدي أمي عمرا ستين سنة ، وكل ما نظرت ليها ، واطلعت فيها ، بشوفا عمال تزيد جمال بنظري ، اذا التفتت أو ضحكيت او حكيت ، بتاسر بقلبي ألطف تاسير يا ريتني مصور كنت بقدر كل حياتي وانا اشتغل بصورتا .. وقديش بستحلي صورها » .

ولقد تصدى حماة العربية الفصحى في لبنان لنقد هذا الموضوع، فكتب الاب لويس شيخو معلقا عليه بقوله :

« نشدتك الله ايها القارىء اللبيب أترى ان هذه الرطانة ستصبح

---

(١) اسحاق ابراهيم اسحاق . قصة اعمال الليل والبلدة . الخرطوم ١٩٧٠.

(٢) لوبون : حضارة العرب ص ٥١٨ .

(٣) جب : تراث الاسلام ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٤) مجلة المقتطف جـ ٨ من السنة السادسة (١٨٨٢) ص ٤٩٤ .

(٥) سلامة موسى : كتاب الادب للشعب . ص ٤٨

يوما اللغة الفصيحة التي ـ على قول كاتبنا ـ ستخلف اللغة الكتابية ؟ وان ثبت ملكها الا تكون القاضية عليها وهو اليوم يزعم انه لا يريد لها اذى ؟ فاين في هذه القطعة ما تعلمناه من تصريف واعراب وترتيب جمل ، فضلا عما فيها من اغلاط الاملاء .. اهذه تكون فصاحة لغتنا في المستقبل ، ان نقدم الباء على المضارع ، ونبذل الفنون في التنوين ونلغي علامة الفاعل والمفعول والمجرور وان نلاشي الضمائر ، ونقلب الحروف كما تخطر على بال العامة ، فتلفظ الثاء تارة تاء وتارة سينا ونقلب اللام « راء ، ونخلط كل الحركات والضوابط بعضها ببعض ، فيالله من لغة معدة للفصاحة ومرشحة للامامة ، بل يا لها من مقصلة جزار لو صار اليها الحكم فعلى لغتنا السلام » .

ثم يبين الاضرار التي ستترتب على المحاولات التي سيقوم بها كل قطر لتغيير لهجته بلغة فصيحة خاصة به ، فيقول : « فيحصل لنا عشرات لغات فصيحة مستقلة ، نحتاج الى اتقانها كما نتعلم اليوم بدلا من اللاتينية اللغات المشتقة منها،كالفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية .

وكما لا تقوى العامية ان تكون أداة للكتابة الادبية او العلمية ، كذلك لا تقوى على ان تصبح أداة للتعليم ، لحاجة التعليم الى التعبير الفصيح في مجالات اللغات والعلوم بكل انواعها ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لان التعليم في نطاق العالم العربي لا ينبغي ان يتم بصورة مختلفة في كل قطر مما يفقد العرب اساسا قويا للوحدة بينهم والتفاهم المشترك . واذا كنا الآن بصدد توحيد برامج التعليم في البلاد العربية المختلفة لخلق جيل متجانس في ثقافته ، يشعر شعورا قويا برابطة القومية التي تنتظر العالم العربي ، وقد سعت الجامعة العربية مشكورة الى تحقيق هذه الغاية فعقدت المؤتمرات الثقافية المختلفة لتوحيد برامج التعليم ، فاولى بنا ان تكون اللغة العربية الفصحى الوسيلة الوحيدة للتعليم في كل البلاد العربية ، لان استخدام العامية لا يؤدي فقط الى تنافر ثقافة كل بلد عن الآخر ، بل هو يسلم ايضا الى فقدان أهم وسيلة للقومية ، وهي اللغة المشتركة .

وليس من شك في ان العلاقة بين اللغة وبين اعتزاز اي امة بقوميتها علاقة خطيرة الشان بحيث نرى انه من الممكن بعث لغة طال موتها ، على اساس الفكرة القومية ، فاسرائيل في العصر الحاضر قد وجدت ان من عوامل تجميع اليهود مختلفي الالسنة والجنسيات ، بعث اللغة العبرية التي كانت من اللغات الميتة في العصر الحديث ، فكيف بنا ونحن نعيش في وطن واحد ، وتربط بيننا عوامل الجنس والتاريخ المشترك واللغة الواحدة ، كيف يراد بنا ان نتخلى عن هذه اللغة ، لنضل طريقنا بين لهجات متباينة ؟

وهكذا يتبين لنا مما قدمناه ان العامية لا يمكن ان تكون لغة عربية مشتركة ، للتنافر الواقع بين لهجاتها المختلفة ، ولانها لا تقوى على ان تصبح اداة للعلم والادب لافتقارها الى القواعد والاصول الثابتة ولتعرضها للتغير الدائب المستمر ، وانها بهذه الصورة لن تؤدي الى ثقافة عربية قومية ، بل تؤدي الى ثقافات محلية محصورة في بيئاتها .

اما اللغة الفصحى فهي الوسيلة الوحيدة التي تؤدي الى الثقافة العربية القومية ، لا تقول ذلك على اساس اعتبارات دينية او عاطفية او تاريخية فحسب ، ولكن لما لها من أصول راسخة ، وتجارب واسعة في مختلف اساليب التعبير اكتسبتها في تاريخها الطويل . حيث يمكن ان تستوعب حقائق العلوم في العصر الحديث ، كما وسعتها في ماضيها البعيد ، كما ان ادبها الفصيح يقوم بدور كبير في بعث الروح القومية واذكائها ، بينما نجد الادب العامي يرتبط بالقوميات المحلية مما يؤدي الى انحلال عرى الثقافة العربية .

نفوسة زكريا سعيد
الاستاذة المساعدة بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

سليمان فياض

العيون

الباب

مجموعة قصصية جديدة لهذا القصاص الفنان الذي يعد في طليعة القصاصين العرب تعبيرا عن ازمة الانسان العربي في المجتمع الحالي .

منشورات دار الآداب صدر حديثا الثمن ٣٠٠ ق.ل.